الإبستمولوجيا التكوينية عند جون بياجي

نبذة مختصرة عن شخصية جون بياجي: لقد شغل في حياته منصب مدير للمكتب العالمي للتربية التابع لليونيسكو) لقد كان كتابه "الابستمولوجيا التكوينية" سنة 1950 محاولة في أن يتوصل إلى اكتشاف مدى ارتباط قوانين التطور وتأثيرها على المفاهيم الرياضية والبيولوجية والعلمية بشكل عام.

"وهكذا نستخلص من ذلك أن الابستمولوجية التكوينية انما تتعامل مع كل من صورة ومعنى المعرفة. ويمكننا أن نصوغ مشكلتنا في العبارات التالية: بأي معنى يمضي العقل الانساني من حالة تكون فيه المعرفة أقل الى حالة تكون فيها المعرفة أعلى؟الواقع أن البت في ما هي المعرفة الأقل وما هي المعرفة الأعلى إنما يعود بالطبع الى الجوانب الصورية والمعيارية وليس من اختصاص السيكولوجيين ان يحددوا ما اذا كانت حالة المعرفة اسمى من حالة أخرى أم لا. فتقرير ذلك يعود الى المناطقة أو إلى المختصين في حقل ما من حقول العلوم. ففي حقل الفيزياء مثلا، يقرر الفيزيائيون المتخصصون وحدهم ما اذا كانت نظرية ما أكثر تقدما من نظرية أخرى أم لا. ومشكلتنا، من وجهة نظر السيكولوجية، ومن وجهة نظر الابستمولوجيا التكوينية، هي أن نوضح كيف يتم الانتقال من معرفة ذات مستوى ادنى الى معرفة ذات مستوى اعلى. لأن طبيعة هذه الانتقالات تعد مسألة واقعية. فأما أن تكون الانتقالات تاريخية أو سيكولوجية أو أحيانا بيولوجية، فهذا ما سأحاوله توضيحه فيما بعد".

جون بياجي. الابستمولوجيا التكوينية. ترجمة السيد نفادي. دار التكوين دمشق. 2004، المقال الثاني. ص44

الابستمولوجية التكوينية كعلم لنمو المعرفة.

لقد ساهم في حقل الابستمولوجية عدة فلاسفة منهم منى أقر بتراكم المعرفة ومنهم من آمن بالقطيعة ومنهم قال بالتكذيب ومنهم من آمن باللامنهج مهما كان حتى جاء جون بياجي ليطلعنا على مصطلح آخر وهو النمو أو التكوين.

الإبستمولوجيا التكوينية عند بياجيه هي "إبستمولوجيا بيولوجية تتأسس على مفهوم النمو"[1].

يتضح إذا أن الإبستمولوجيا عند بياجيه مقترنة بعلم هو البيولوجيا، بل نجد هنا مقارنة صريحة بينهما، ما دامت البيولوجيا تدرس نمو الكائن الحي في الزمن. لأن فلسفة بياجي في مجملها تركز على في مجملها على التأثير التركيب البيولوجي للانسان على قدراته العقلية، وتأثير البيئة على تركيب الفرد.

من خلال هذه المقاربة نستطيع استخلاص مفهوم بياجيه للمعرفة وتعريفه لموضوع الإبستمولوجيا

[1] Jean Piaget. Introduction à l'Epistémologie génétique, P.U.F 1950, p5

جون بياجي. الابستمولوجيا التكوينية. ترجمة السيد نفادي. دار التكوين دمشق. 2004، المقال الثاني. ص44

التكوينية.

إن معرفة ما – علمية كانت، أو قبل علمية- هي بمثابة بناء حي، وهنا نكون أمام اعتبارين اثنين:

الأول: أنها ليست ثابتة ولا مطلقة، يقول بياجيه ليس علينا أن نتساءل عما هي المعرفة العلمية ككل ساكن، بل علينا أن نضع السؤال: كيف تنمو المعارف وتتزايد؟ و لانها خاضعة للنمو في الزمن، دون بداية ولا نهاية[2]. وفيه تنبني وتتحول بفضل تفاعل الذات العارفة وموضوع المعرفة أي الواقع. وبهذا الشكل فإن المعرفة لا تعدو أن تكون نسبية لأنه في مرحلة ما من سيرورة تكونها أو نموها.

الثاني: إن المعرفة مثل أي كائن حي، ليست تجميعا لعناصر مختلفة ومستقلة، ولكنها تكون "كلا" يتبنين وينتظم خلال مراحل نموه وحسب قوانينه الخاصة. مثلا بين نمو الانسان والحيوان لا نجد بينهما يتبعان نفس المسار.

إن موضوع الإبستمولوجيا التكوينية ليس هو المعرفة في ذاتها، بل هي المعرفة المطروحة من ناحية نموها في الزمن، وهكذا فإن التحليل التكويني يجب أن يبرز ميكانيزمات هذا النمو، وبمعنى آخر فإنه يجب أن يشرح كيف يتم الانتقال من "معرفة قليلة الجودة إلى معارف أكثر غنى وثراء" أي من معرفة ناقصة إلى معرفة قريبة من الكمال. وتكون الإبستمولوجيا التكوينية، بشكل عام، هي دراسة الميكانيزمات المشتركة لمختلف أشكال النمو.

إن تحليل التكون الحقيقي للمعرفة، يتحقق عبر مستويين:

- المستوى الفردي، حيث يدرس بياجيه تكون بعض مفاهيم وبنيات التفكير منذ الولادة إلى سن الرشد (المنهج النفسي التكويني).
- المستوى التاريخي يدرس نمو المعارف عبر تاريخ الفكر العلمي الذي لا يتوقف طيلة حياة البشرية، تارة تمر بالتأييد وتارة أخرى بالتفنيد والنقد (المنهج التاريخي النقدي).

رغم الاختلاف الموجود بين المنهجين إلا أنهما متكاملان للحفاظ على تسلسل المعرفة في المكان والزمان .

وبعد التخلص من المشكل الميتافيزيقي الذي تمثله الإبستمولوجيا الفلسفية نتيجة التطورات العلمي المتتالية، يؤكد بياجيه أن التحليل التكويني يقربنا من حل للسؤال الأساسي "ما هي المعرفة في ذاتها؟" أي المعرفة العلمية التي نبحث عنها بالمناهج العلمية المختلفة. ومع ذلك لا يدعو الى التفاءل بهذا الحل، لأنه قد يكون غير مصيب في محاولته. نتج عن التحليل لمفهوم المعرفة التكوينية منهجان:

[2] Ibid. pp3-4

مناهج الإبستمولوجيا التكوينية

1- **المنهج النفسي-التكويني، والمنهج التاريخي النقدي**

ان مفهوم التكوين يقتضي بأن كل معرفة موجودة كبنية قائمة على آداء مهمة. ولذلك تصبح دراسة أي بنية عقلية تشكل عملية منفصلة ومستقلة أو تشريحية. كما أن تحليل الوظائف يطابق عمل علم الفيزيولوجيا.

2- **المنهج الأول هو المنهج التاريخي النقدي** (استلهم المنهج النقدي من كانط)

يقوم على متابعة تسلسل البنيات "المفاهيم" في الزمن، للمقارنة بينها أي بين البنيات العقلية، مثل البنيات الخاصة بالمفاهيم المركبة والتي يستخدمها التفكير العلمي مثل الرياضيات أو الفيزياء، كما يقوم بمتابعة نمو وتطور المفاهيم المستعملة من طرف علم ما عبر تاريخه. يكون من السهل بناء بعض التسلسلات بالتتابع المباشر أو من خلال تحديد نظام الارتباطات المستعملة في سياقاتها التاريخية.

ولكن المنهج التاريخي النقدي يبقى من جهة أخرى، محدودا داخل حقل تاريخ العلوم نفسها ليركز على مفاهيم تم بناؤها واستعمالها من طرف تفكير مبني مسبقا الذي يتعارض مع البناء والتكوين. ويبقى هذا المنهج في الغالب قاصرا عن الاستجابة لموضوع المشكلة، ذلك أن هناك تسلسلات، تنفلت نهائيا من إمكانية التحليل، من جراء الصعوبة الكبرى لإثبات تتابع واضح بينها نظرا لوجود فارق يتخللها.

لهذا السبب نجد هذا المنهج (الذي يهتم بالتسلسلات المباشرة والارتباطات كما هو الشأن في علم التشريح المقارن "يقوم هذا التشريح على تعميم النتائج بناء على ما تثبته المقارنة من تشابه كبير بين العينات"، يصبح بالضرورة في حاجة إلى أن يدعمه منهج ثان، هو

3- **المنهج الجنيني**Embryologique ، **أو النفسي التكويني** psychogénétique ويقوم هذا المنهج على تمديد المقارنة وتوسيعها لتشمل اللحظات الأولية في النمو التطوري للفرد، ويعني ذلك بناء كل المفاهيم الأساسية أو المقولات الفكرية التي يمكن رسم خريطة تكونها عبر النمو العقلي للفرد من الولادة إلى سن الرشد خاصة، وما بعده.

صحيح أيضا أن نمو الطفل يتأثر بالوسط الاجتماعي، والذي لا يلعب فقط دور المحرك، بل الملقن كذلك لجملة من المفاهيم تتضمن في ذاتها تاريخا جمعيا. وإذا كان الفرد في طور التكوين يتلقى الإرث الاجتماعي بهذه الطريقة، وهو الإرث الذي تشكل من طرف الأجيال السابقة، فمن

الواضح إذن أن المنهج التاريخي النقدي الذي تحول إلى منهج اجتماعي- نقدي، هو الذي يوجه المنهج النفسي- التكويني.

أن الطفل لما يتلقى المفاهيم المؤسسة في الوسط الاجتماعي، يستطيع تحويلها وتمثلها ببنياته العقلية المختلفة، مثلما يتمثل الوسط الذي يتكون من الأشياء المحيطة به، أي يتبطنها.
وهذه تشكل معطيات ليس بإمكان السوسيولوجيا والتاريخ تفسيرها، ومن خلال دراستها يصبح المنهج النفسي- التكويني موجها بدوره للمنهج التاريخي- النقدي. ومن أجل تكامل بين المنهجين التاريخي- النقدي والنفسي التكويني، مثمرا، ومن أجل تطور الفكر العلمي نفسه، يلزم بطبيعة الحال أن يحصل التكامل بينها.

اهتم كل من الرياضيين والفيزيائيين بدورهم عندما وظفوا علم النفس في الفترة المعاصرة كما هو الشأن بالنسبة لألبرت إنشتاين الذي نصح بياجيه (سنة 1928) بدراسة حدس السرعة هل يقتضي في تكونه فهما مسبقا للتوقيت، أو أنه يتكون بمعزل عنه. وتدخل هذه المشكلة ضمن موضوع السببية الفيزيائية عند الطفل[3].
يلاحظ إذن أن مهمة الإبستمولوجيا التكوينية ثنائية، لأنها من جهة ممثلة في دراسة نفسية للنمو الفكري، من خلاله تسعى إلى تفسير مشكلة نمو المعارف. لكنها حينما تعتمد التحليل التاريخي النقدي تميل أكثر إلى تحديد وضبط العلاقات القائمة بين العلوم "بين الماضي والحاضر"مبرزة ما يربط الذات بالموضوع في اتجاه فهم أعمق للمعرفة الإنسانية.

الخاتمة

تدرس الابستمولوجية التكوينية عملية تطور المعرفة الإنسانية، لأنها ليست فطرية كما يعتقد بعض الابستمولجيين والفلاسفة مثل ديكارت و كانط وغيرهما. إنها عملية نامية تبدأ من الطفولة الى غاية سن الرشد وتبقى متواصلة. تتأثر هذه العملية بالقدرات العقلية والبيولوجية للفرد والوسط الاجتماعي والبيئي الذي يعيش فيه، وعند تفاعل الكل سيساهم في هذا التطور والوصول إلى مبتغى هذا الفرد وما تريده الجماعة منه ان يكون.

[3] Jean Piaget. Programme et méthodes de l'épistémologie génétique in Epistémologie génétique et recherches psychologiques N° 1 des études d'Epistémologie génétique" PARIS, P.U.F, 1957